أمهات سوريات

«شهادات»

أمهات سوريات

إعداد: الرابطة السورية للمواطنة ومجموعة بسمة الدولية

الطبعة الأولى ـ 2017

ISBN: 978-9953-583-80-8

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر ومقدماً.

الناشر:

الرابطة السورية للمواطنة

بيت المواطن للنشر والتوزيع

دمشق ـ الجمهورية العربية السورية

بريد إلكتروني: baitelmouwaten@gmail.com

بالتعاون مع

«بسمة» للمساعدات الإنسانية

أمهات سوريات

«شهادات»

إعداد:

الرابطة السورية للمواطنة

ومجموعة بسمة الدولية

عملت على إنجاز هذا العمل مجموعة واسعة من المتخصصين:

1. **فريق الإعلاميين:**

ديما علي

دلدار فلمز

فرح أبو عسلي

محمد الحموي

وآخرون فضّلوا التحفظ على ذكر أسمائهم

2. **فريق التصوير الفوتوغرافي:**

دلدار فلمز

فرح أبو عسلي

محمد حسن

محمد عبدالله ـ آرتينو

غنوة يوسف

وآخرون فضّلوا التحفظ على ذكر أسمائهم

3. **تنسيق عام:** أمل الياس

4. **تحرير النصوص:** حسان عباس

5. **الإخراج الفني:** فايز علام

6. **تصميم الغلاف:** فرح أبو عسلي

هذا الكتاب

هذا الكتاب ينقل، بأمانة وصدق، أجزاءَ من أحاديث طويلة سجّلت مع النساء الواردة أسماؤهن كما أردن لها أن تظهر. وبالتالي فإن كل ما يرد من حديث وأقوال في هذا الكتاب هو لصاحباته دون أي تدخل من قبلنا سوى تدخل التحرير اللغوي الأمين. وقد آثرنا في كثير من المقابلات على الاحتفاظ بالعامية عندما كنا نجد أن أي تغيير للفصحى سيخنق روح النص.

جرت المقابلات في الأماكن التي تعيش فيها النساء صاحبات الشهادات. أما الصور فهي أيضاً صورهن في الفضاءات التي اخترن أن يتصوّرن فيها، باستثناء صور السيدات في الصفحات (16 - 20 - 64 - 88) فهي صور رفيقات لصاحبات الشهادات وافقن على الظهور بدلاً من رفيقاتهن المتحدثات اللواتي امتنعن عن التصوّر تعففاً أو خوفاً.

مجموعة «بسمة» الدولية للمساعدة الإنسانية هي منظمة غير حكومية، مستقلة، غير تابعة لأي جهة سياسية أو دينية، وتعمل مع كل فئات المجتمع دون تمييز على مشاريع مستدامة من مقاربة حقوق الإنسان.

تستهدف مجموعة «بسمة» في مشاريعها، بشكل خاص، المرأة والطفل والشباب.

رؤية «بسمة» هي رسم البسمة على وجوه الناس، من خلال تحسين نوعية حياة تليق بكرامة القيمة الجوهرية للإنسان، وتحترمها، انطلاقاً من مبادئ الشرعة الدولية لحقوق الإنسان.

تأتي مشاركة مجموعة بسمة في هذه الشهادات تعبيراً صادقاً من أسرتها عن التضامن التام مع الأمهات السوريات في ظل ما يعشنه من محنٍ، ووقفة تقدير واحترام لصمودهن أمام هول ما يحصل.

لماذا الأم السورية؟

لأنها أكثر من امرأة، فهي الوطن عندما أصيب الوطن، وهي الحياة في مواجهة ثقافة الموت، وهي الأمل بعدما عمّت الخيبة...

شهادات حية سيبقى صداها إلى الأبد. شهادات صادرة من قلوب طاهرة نقية تقاسمت الوجع والحزن. قلوب تتأرجح بين الألم والأمل بانتظار عودة أحباب وعودة وطن.

سيداتي الأمهات السوريات، يبقى الأمل معكن في صناعة السلام، وفي نشر ثقافة حقوق الإنسان بدل ثقافة الموت و العنف، وفي التغلب على المصاعب والمصائب.

معكن سيداتي ستتغلب رائحة الياسمين على رائحة النار والبارود، وسينبثق شعاع فجر جديد.

المديرة العامة

لمجموعة بسمة الدولية للمساعدة الإنسانية

غولشان صغلام

اعترفت الأمم المتحدة في عام 2000، عبر مجلس الأمن، بالتأثير الخاص للنزاعات على النساء. واعترفت أيضاً بالحاجة إلى تضمين النساء، باعتبارهن صاحبات مصلحة، في مجال درء الصراعات وحلها. وأصدر مجلس الأمن قراره رقم 1325 والقرارات الملحقة به، وصولاً إلى القرار 2122 بشأن المرأة، مشدداً على الحاجة إلى مراعاة خصوصية المرأة وإشراكها في عمليات الحفاظ على الأمن، وبناء السلام، وخاصةً في المناطق المتضررة من النزاع. وشدّد أيضاً على تمثيل نساء المجتمعات التي شهدت صراعات مسلحة لإسماع أصواتهن في عملية تسوية الصراعات، وليكنَ جزءاً من جميع مستويات صنع القرار كشريك على قدم المساواة لمنع الصراعات وحلها وتحقيق السلام المستدام.

والرابطة السورية للمواطنة ترى أن توثيق شهادات «الأمهات السوريات» بالصورة والكلمة هو جزء من عملية بناء السلام والمصالحة في ظل المساءلة.

وإن كانت موضوعات التذكّر الخاصة بكل مواطن في مجتمع ما تشكّل ذاكرته الفردية، الحميمة الخاصة به، فإن هذه الذاكرة «الفردية» ليست «فردية» إلى هذه الدرجة. فموضوعات التذكّر، والذكريات، بقدر ما هي مرتبطةٌ، بالضرورة، بالأنساق المجتمعية الخاصة التي ينتمي إليها الفرد، مرتبطةٌ بالقدر نفسه بالتاريخ الجمعي الذي تصيب أحداثه الجماعة بمجملها.

والنزاعات المسلحة التي تأخذ شكل حرب لا ينجو أحد من شررها، كالنزاع القائم في سورية الآن، ولّادة لذكريات خاصة لكل مواطن في الوطن، إذ لا يمكن القول إن ثمة

من لم يصبه ذاك النزاع بشيء من الأذى. لكن، ولأن النزاع المسلح شرٌّ عميم، تصبح هذه الذكريات الخاصة ذاكرة جمعية لجميع المواطنين.

للأمهات في النزاعات المسلحة ذاكرات كليمة لا تندمل جراحها. وهي ذاكرات حبلى بذكريات فريدة فرادة الألم الذي يحملنه. وعميقة عمق الكرامة التي يفتخرن بها. وهذا ما يظهر في تفاصيل وجوههن وفي ثنايا كلماتهن.

إن هذا الكتاب يحاول تماماً أن ينقل، من خلال الصورة، ذاك الألم المحفور في الوجوه؛ ومن خلال الكلمات، ذاك الفخر المتواضع الذي يستبطن الكلمات. ويريد، قبل كل شيء، أن ينقل للعالم صرخة الأم السورية: أوقفوا الحرب!

حسان عباس

الرابطة السورية للمواطنة

«بيكفينا وجع!»

أديبة خليل

(الحسكة)

أنا أمّ لثمانية أبناء: خمس فتيات وثلاثة شباب. أحببتهم أكثر من محبّتي للدنيا كلها. وكانوا يتعلّمون في المدارس، لكن بسبب ظروفنا المادية الصعبة اضطروا إلى ترك مدارسهم والعمل في البناء.

ذات يوم، أخبرني ابني الأوسط خليل أنه قرّر المشاركة في المعركة ضد التكفيريين. حاولت منعه، بلا جدوى. كنت، في إجازاته، أحمّمه وأطعمه كالأطفال.

عندما غادر المنزل في نهاية إجازته الأخيرة، التفت صوبي وقال: ادعي لي يا أمي! ثم استدار مرة ثانية وابتسم. توجّست من تصرّفه وشعرت بانقباض شديد في قلبي. بعد ساعة سمعنا صوت اشتباكات، وعرفنا أن خليل أصيب. ركضت إلى المشفى، كان قلبي ينبئني بأن أمراً خطيراً قد حدث.

"عرفت أنه مات جائعاً"

بعد قليل حضر ابني البكر نضال ليخبرني بأنه سيذهب إلى المعركة بدلاً من خليل. رجوته ألا يرحل. لكنه ذهب دون أن أراه. وذهبت إلى المشفى عند ابني الجريح. بكيت، وقبّلت يديه وقدميه وتوسّلت إليه ألّا يموت. استيقظ للحظات وناداني باسمي، ركعت أمامه وقلت له: أنا هنا، روحي فداؤك، أنا قربان لك! وأمسكت بيديه وقبّلته.

بعد ثلاثة أشهر، أخبرني نضال أنه سيذهب للقتال في «راس العين». جاء مساء وكنت قد جهزت له طعامه المفضل (المجدرة). أكل وطلب مني أن ينام على حضني.. وضع رأسه على قدمي، قبّلته، ومسحت شعره وكان ينظر إلي ويضحك، شربنا القهوة بعدها ودخنت معه السيكارة ثم ألبسته بيدي ثياب أخيه، ألبسته سترة دافئة، ودعوت الله أن يحميه. كان يضحك وهو يردّد: الشهداء لا يموتون. قضيت يومي مغمومة. بعد أيام قليلة، وفي الصباح الباكر، دخل زوجي وأخوه إلى غرفة خليل غاضبين. أحسست قلبي توقّف. سألته عمّا يجري فقال إن نضال استشهد، وإن ابننا الثالث أصيب أيضاً.

خرجت من المشفى كالمجنونة. أخذت أضرب رأسي بالجدران وأصيح: «شو عملت يا ربّي؟ ابني شهيد وإخواته الاثنين جريحين!».

قمنا بمراسم العزاء ولكن لم يكن هناك جثمان لندفنه، لذلك لم أكن مقتنعة بأني فقدته، وكانت الأحلام تراودني بأنه يتحدث إلي ويطلب مني ألّا أبكي وكنت أصحو لأنتظر عودته ومرت سنة وأنا أقنع نفسي بأنه سيعود. بعد مرور عام وصلت جثامين شهداء إلى المشفى. ذهبنا، وكان أول ما رأيناه جثمان ابني، لم أعرفه إلا من السترة التي كان يلبسها. ضممت ثيابه وعظامه. كانت قبضة يده مطبقة على علبة مرتديلا ما زالت مختومة. عرفت أنه مات جائعاً، فبكيت وبكيت.

أنا كأم ضحت بأولادها الثلاثة أتمنى أن أن لا يتكرر ما حدث مع أي أم أخرى. موت الابن ينقص عمر أمه، والعمر قصير. عمري انتهى مع أولادي، ولكنني أحاول أن أبقى حيّة من أجل الباقين.

أطلب من الله أن تتوقف هذه الحرب ويكفي الأمهات ذرفاً للدموع.

«بِيكَفِّينا وَجَع!».

«السجن موعيب»

أم أحمد

(الميدان)

«أنا أم أحمد. ما عندي ولد اسمو أحمد، لأن الله ما رزقني صبيان. بس عندي بنتين بيسووا مية شبّ.

دخلت بنتي الكبيرة معهد التمريض، ورفضت تلبس الحجاب. قبل موت أبوها كان يمزح معها ويقول لها: عيب! حطّي ع راسك! فتجيبه: «العيب لمّا الواحد بيعمل العيب يا بابا!». أبوها عقلو متفتح بعكس إخواتو اللي قاطَعونا كلّ العمر بسبب حجاب البنات.

لما بدأت الثورة تغيّرت بنتي، صارت تسهر وتتزّين وتتأنّق.

ظنّيت أنها عشقانة، ولم أتدخّل. لكنها صارت تنزوي في غرفتها، وتتهامس هي وأختها ولا أفهم ما تقولان، وعندما تخرج تحمل جعبة بدل حقيبة اليد. وصارت تزورهما صديقات جديدات من السويدا، ومن الساحل.

وصلت المظاهرات إلى الحي وما منعتهما عن المشاركة فيها، بل تمنّيت مشاركتهما. الحرية غالية، والقمع اللي صارلنا عايشين فيه أربعين سنة لازم يخلص بقا! شو ذنب هالأطفال بدرعا؟! وشو ذنب هالشباب والصبايا اللي عم يستشهدوا أو يعتقلوا؟!

ذات يوم، سألتهما عمّا يحدث لهما. فقالتا لي إن الكبيرة تقوم بشراء الدواء وتهريبه إلى الثوّار. أما الماكياج فهو لتسهيل العبور على الحواجز، لأن العساكر لا يفتشون الصبية المتزيّنة. ضحكنا كثير ساعتها، لكن الخوف بدأ يخنقني.

"شو ذنبهن؟ بس لأنهن طالبوا بحلمنا كلنا؟!"

في اليوم التالي، عادت الصغيرة إلى البيت متأخرة بصحبة محامٍ، وأخبراني أن الأمن اعتقل ابنتي في عملها. حاول المحامي طمأنتي، لكن قلب الأم ما بيهدا. زرت كل فروع الأمن، ودفعت كثير رشاوي، بلا فائدة، وهَيّ صارلها 3 سنين مغيّبة.

أهل زوجي صاروا يضغطوا على الصغيرة بدهن يزوجوها، قالوا لي: حتى لا تتبهدل

متل أختها. جاوبتن: السجن ما بيبهدل ومانو عيب. بنتي ما رح تطلع من المعتقل مبهدلة أبداً، بدها تطلع راسها مرفوع ونرفع راسنا فيها.

ناطرة الفرج، وناطرة بنتي وغيرها يرجعوا ع حضن أمهاتهن، شو ذنبهن؟ بس لأنهن طالبوا بحلمنا كلنا؟!

سوريا حرّة، والشعب السوري حرّ!

وبكرة بس تنتهي الحرب رح نرجع نعمّرها، سنّي ودرزي ومسيحي وعلوي وكردي.

كلّنا سوريين، وكلّنا من واجبنا نعمّرها، متل ما كان من واجبنا نحميها!».

لا شيء.. لا شيء

أم أحمد

(داريا)

قبل بدء الثورة كنا نعيش برخاء نسبي في داريّا. كان ابني يمتلك بيتاً وسيارة ولا ينقصنا شيء. بعد أن عرفنا ما جرى لأطفال درعا، خفنا على أطفالنا وبدأنا نخرج في المظاهرات. مثل كل أمّ، كنت خائفة على أولادي، لكنهم كانوا يتظاهرون من أجل كرامتنا.

ذات يوم، اعتقل الأمن ابني الأول. وبعد أيام استُشهد تحت التعذيب. لم أكن أتخيّل أن يتعاملوا مع المتظاهرين السلميين بهذه الدرجة من القسوة والوحشية.

ابني الثاني اعتُقل أمام البيت. في السنة الثالثة عرفنا مكان سجنه، أزوره كل شهرين مرة، لأراه خمس دقائق عن بعد أكثر من متر، ومن خلال شبك متين. أربع سنوات مرّت دون محاكمة، ولا أحد يعرف متى قد يخرج.

من سنتين، داهمت مجموعة كبيرة من قوات الأمن بيتنا. ضربوا زوجي وضربوني، فتّشوا كل زوايا البيت وأخذوا كل ما وجدوه من مال وصيغة وموبايلات، ثم ضربوا ابني الثالث واقتادوه. قالوا سنعيده بعد ساعتين، وهيّ مرت سنتين بدون ما أعرف عنه شي. هل هو ميّت؟ هل هو حيّ؟ لا شيء، لا شيء!

"وهيّ مرت سنتين بدون ما أعرف عنه شي"

أملي كبير إنه بعد ما تنتصر الثورة سيزول الغضب والحقد من نفوس السوريين وسنتسامح، بعد أن نحاسب من أذلّنا وقتل أولادنا. لا أحمل في قلبي شعوراً للانتقام، وأتمنى لسورية المستقبل أن تعيش بكرامة وسلام، وأن يعامَل السوريون كبشر.

لماذا؟

أم جعفر

(اللاذقية)

أنا من ريف اللاذقية، زوجي أمّي يعمل في البناء، وأنا درست حتى المرحلة الثانوية، كنت أحب الدراسة والعلم كثيراً، وما زلت حتى اليوم أقرأ ما يجلبه الأولاد من قصص ومجلات. تعبت كثيراً حتى حصل الأولاد جميعهم على شهاداتهم الثانوية. لكن جعفر هو الوحيد الذي تابع الدراسة في الجامعة، وكنت فخورة بذلك.

أحبّ فتاة من حلب من الطايفة السنّيّة، وذهبنا لخطبتها، ووعدْتُه بأجمل عرس عندما ينهيان دراستهما. وهذا ما جرى فكانت فرحة تخرّجه فرحتَين.

"لست فرحة بلقب أمّ الشهيد"

في نهاية عام 2011 التحق بالخدمة العسكرية. أراد أن ينتهي منها بسرعة ليتابع دراسات عليا حتى الدكتوراه. لكنهم، عند انتهاء فترة خدمته، احتفظوا به. وبدأ الخوف عليه يتفاقم مع ازدياد العنف والدم. كان يتابع الأحداث بحماس ويصرخ أمام مشاهد العنف: «لازم يصير التغيير ولازم يتحسّن البلد.. بس مو بالدم!».

اعتقلوا صديقاً له، وعذّبوه حتى استشهد في المعتقل. يومذاك أخذ ينتحب مثل الأطفال. وزاد حزنه وغضبه مع تزايد عدد الشهداء من حولنا.

في آخر إجازة له كان شاحباً وضعيفاً. ابتسامته غابت وصار عصبيّ المزاج. وعندما سافر صارت مناحة في البيت. مرّت أسابيع دون أي خبر منه، ثم زارنا ضابط من فرقته وتكلّم على انفراد مع أبيه. دخلت لأقدّم القهوة، فسمعت زوجي يشتم ويصرخ: «لك هدا الغالي، وين أخدتوه؟ وين رحتو فيه؟»، وعندما رآني أرتجف أخذ مني صينية القهوة، وأجلسني إلى جانبه وقال لي: «إنتي مرة مؤمنة، وهدا اللي كاتبو الله!».

شُلّت حركتي وأحسست بالغضب أكثر مما أحسست بالحزن وقتئذٍ. لماذا؟ لماذا دفع ابني عمره؟ ولماذا دفعت عروسه من عمرها؟ لا أحد يملك جواباً مقنعاً؟

أدعو الله أن تنتهي هذه المأساة. تعبنا، تعبت عيوننا من كثرة البكاء، كم أمّ احترق قلبها على أولادها، وعلى زوجها وعلى بيتها!

أنا لست فرحة بلقب أمّ الشهيد، كنت أفضّل لو بقي حيّاً هو ورفاقه، وأعتقد بأن هذه حال كل الأمهات في سورية.

«بدنا يرجع السلم وتعود الشباب لبيوتها وأهلها!

سورية أمّ عم تخسر ولادها كل يوم!».

«وهي حالتنا هيك»

أم حسن

(عربين)

«سنة 2013، تركت بيتي بالغوطة وطلعت. لحدّ هداك الوقت كنا أنا وزوجي وولادي قاعدين ومرتاحين ببيتنا. كنا مبسوطين وموناقصنا شي، الحمدلله.. خير كثير ورزق كثير. كان زوجي يشتغل بالتجارة وبالأراضي، ووضعنا كثير منيح وعنّا أراضي وبيوت. لكن ما عاد في شغل وصارت الحياة صعبة، وخلّصنا كل المصاري اللي معنا والأسعار ارتفعت كثير. قرّر زوجي يشتغل على سيارة حتى يأمّن معيشة الأولاد. كنت كثير خايفة عليه لأنّو بهذيك الفترة.. اللي بيطلع من بيتو بيتعرّض لخطر الاعتقال أو الإصابة بسبب القصف، طلع أول نقلة بالسيارة ومشي حاله ورجع عالبيت، ثاني مرّة طلع وما رجع!!

"معقول يصير فينا متل الفلسطينية؟!"

كانوا الناس يطلعوا بالمظاهرات، لكن زوجي ما كان يطلع معهن. كان يخاف إذا صار له شي كيف رح نعيش من بعده. بعد سبع شهور من غيابه، طلع قريبه من السجن وقال لي إنه من أول عشرة أيام استشهد زوجي تحت التعذيب. صارت الأحوال في غيابه كثير صعبة. مابقي عنا شي ناكله، قررت آخذ ولادي وإطلع من الغوطة. ظلّينا فترة في عدرا الصناعية، ضاقت علينا الأحوال فيها أكثر، ما ظل عنا شي.. لا أكل، لا دوا، لا خبز، ولا شي، فقرّرنا نجي عالسويداء.

استأجرنا بيت وصار ابني الكبير يشتغل بمطعم لحتى نقدر نعيش، صار معو وجع بظهرو من كثر الشغل وحمل الأشياء الثقيلة. برمضان إجاني شويّة مصاري، وادّيّنت فوقن شويّ، وقرّرت ابعثو لعند عمّو على تركيا ليتعالج، وسافر ابني وبلّشت أنا وبنتي الكبيرة نشتغل بالخياطة والتطريز. أنا وضعي الصحي كتير تعبان، بس عم بشتغل حتى أمّن آجار البيت وطعمي الولاد، إذا ولد مرض مابقدر آخذو عالدكتور، وهَيْ حالتنا هيك!

ما بعرف إذا رح إقدر سامح الناس اللي عملوا فينا هيك، مات زوجي، وجاعوا ولادي، وتشرّدنا.. كيف بدّي سامح؟ بس لازم الناس بالأخير تفهم على بعضا ويحطّوا إيديهن بإيدين بعض ويبنوا هالبلد، بس قديش بدنا وقت!

لمّا طلعنا من بيتنا أخذنا معنا المفاتيح وسألنا حالنا: رح نرجع؟ وهلّق بقول لحالي بعد سنتين ونص نزوح: معقول يصير فينا متل الفلسطينية؟!».

كان المشمش مزهراً

أم رسلان

(القصير)

أيامنا كانت خوفاً مستمراً، وخاصة على الأطفال. كان القصف يقترب من بيتنا. مرة، بينما كنت أحضّر الطعام في المطبخ، أصيب بيت جيراننا. هربت النساء إلى بناء يحتمين به. هربت معهن ومعي ابني الصغير. سقطت قذيفة في وسط المجموعة، وانفصلت عن ابني. مرّ وقت ثقيل حتى انقشع الغبار واتضحت الرؤية، سمعت جارتي تولول وهي تنتشل جثة ابنها. كم كان هذا محزناً!

تجمّعنا في غرفة ريثما يأتي من يقودنا إلى أماكن آمنة، وقادوني إلى بيت أختي. بعد ساعة جاء ابن اختي وطلب مني أن أغيّر مكان إقامتي بسبب القصف. لم يرُق لي الأمر لكنني أذعنت. وصلنا إلى مكان موصد الأبواب فيه نساء كثيرات يندبن. شعرت بغصّة في القلب. أمام البيت كان أربعة رجال، صرخ أحدهم حين رآني: ابنك الكبير استشهد يا أم رسلان. أغمي عليّ، وعندما استيقظت أدخلوني إلى الغرفة حيث كان ممدداً، ملفوفاً بكفن أبيض. لم أرَ سوى وجهه. لم يسمحوا لي برؤية جسده. حمل الرجال جثته ودفنوه دون أن أتمكن من وداعه.

"دفنوه دون أن أتمكن من وداعه"

دفن أهالي القرية ضحاياهم بسرعة، وهربنا بسبب اشتداد القصف.

لن أنسى ما حييت ذاك اليوم، فقد كان المشمش مزهراً، وكنت أرى الزهر الأبيض على امتداد طريق الهروب.

كان لديّ عشرة أطفال، وحلمي الوحيد اليوم أن يكبر الباقون في بلدهم!

هدية عيد الأم

أم سعيد

(القصير)

خرج ابني البكر ليجلب الخبز للبيت، فاجأته قذيفة صاروخية أصابته في بطنه وبُترت يده.

في اليوم الأول لإصابته كان لا يزال حياً، وتقرر إجراء عملية له. كنت أصلّي كي لا يموت، حتى لو اضطررت أن أقوم بإطعامه وخدمته وتحفيضه من جديد. كنت لأرضى بأي عذاب شرط أن يبقى. عندما حلّ الليل، شعرت بغصّة في القلب فعرفت أنه فارق الحياة، وعند أذان الصبح أخبروني باستشهاده. هشلت، وركضت في البرية أصرخ، لحقوا بي وأعادوني. كانوا قد أحضروه إليّ لأودّعه، رأيته يضحك في كفنه، قبّلته، وودّعته، ولكنني لم أتمكّن من البكاء. كان رفيقي وروحي وكل دنياي، لكنّي لم أتمكّن من البكاء.

"ترك لي طفلته ذكرى منه"

الآن أبكي كلّما رأيت ابنته. هي لا تعرفه لأنها كانت لا تزال في رحم أمها حين استشهد، وقد سمّيت على اسمي، كما كان يريد.

ابني عمره 23 سنة. كان ميسوراً ومجتهداً في عمله. كنا نتناول فطورنا، ونشرب المتة معاً كل صباح. وفي عيد الأم، هو الوحيد الذي كان يجلب لي هدية، وبعد استشهاده لم يعد أحد يحضر لي شيئاً بهذا العيد. آه لقد رحل الغالي!

لن يحدث في سورية أكثر مما حصل، وأتمنى أن نعود يوماً ما إليها. سنلتقي هناك مع الجيرة والأصدقاء وكلٌّ منهم فقد ابناً أو صديقاً أو حبيباً. سنعود مع هذا الجيل الصغير، والباقي يتكفّل به مَن خلَقَنا.

ترك لي ابني طفلته ذكرى منه. إنها ذكرى غالية لا أقيسها بمال الدنيا كلها، وخاصة عندما تناديني: «أمي»!

دعونا نفرح بمن تبقّى!

أم فيصل

(الرقة)

من أنا؟ وما يهمّ اسمي؟ أنا أمّ فقدت ابنها، حالي من حال كل الأمهات الثكالى في سورية.

أسمّوني ما شئتم، ولكن انقلوا وجعي لمن هو مهتمّ بأن يسمع، وأن يفعل ما يمكن لإنقاذ من تبقّى.

أنا أم لثلاثة أولاد، وزوجي متوفى من عشر سنوات. كنت أعمل مستخدمة في الثانوية التي درس فيها أبنائي الشباب.

عندما توفي زوجي، كان عليّ أن أعمل لأعيل أسرتي. كان ابني الأكبر في الثانوية، وكنت أخشى في البداية أن يخجل من عملي أمام أصدقائه، ولكنه فاجأني في أول يوم عمل بأنه أقام احتفالاً صغيراً مع بعض زملائه للترحيب بي. كان يحب الفنون، ورغم انتسابه إلى كلية الهندسة المدنية، لم يتخلَ عن ولعه بالرسم. عندما بدأت الثورة كان في السنة الجامعية الرابعة. كان يخطّط اللافتات، ويرسم اللوحات التي يرفعها في المظاهرات مع رفاقه.

"من أنا؟ وما يهمّ اسمي؟ أنا أمّ فقدت ابنها"

في منتصف عام 2013 بدأت داعش تفرض سيطرتها على الرقة، وخشينا إن تأخرنا بالرحيل ألا نستطيع الهرب لاحقاً.

قام ابني بتأمين شاحنة تقلّنا أنا وإخوته، في حين قرر هو أن يسافر باتجاه الحدود ليذهب برّاً إلى تركيا، ومنها، بحراً، إلى أوروبا مع مجموعة من أصدقائه.

تحدّد موعد فراقنا ليلاً، صعدنا الشاحنة وبقي فيصل. قال لي: إن غرقت في البحر يا أمي فلن تتكلّفوا بدفني، ستجدينني في علب السردين والطون! أغضبني مزاحه وبكيت.

بقي عدة أشهر في تركيا، لتأمين المبلغ الكبير الذي طلبه المهرّبون. وأخيراً اتصل بي ليخبرني أنهم مغادرون، وأنه سيتصل عندما يصل إلى برّ الأمان.

لم يتصل... مرّت أيام وأيام وأنا أنتظر. ثم جاء الخبر من أحد رفاقه بأن المركب الذي كانوا فيه غرق، وأن ابني لم ينجُ.

لم أصدّق، لا شكّ أنه مخطئ، ربما أنقذته جهةٌ ما، ربما لا يستطيع الاتصال، ربما، ربما.. كنت أبحث عن كل عذر كي لا أصدّق أنه رحل.

منذ فترة أنجبت ابنتي فتاة صغيرة ملأت منزلنا أملاً جديداً.

أريد العيش بسلام في سورية، قد لا يرجع من رحل، على الأقل دعونا نفرح بمن تبقّى.

لن أقطع الأمل

أم محمد

(كرم الزيتون)

كنا نعيش في منطقة كرم الزيتون، في حمص، بسلام ومحبّة مع جيراننا من جميع الطوائف. لكن الأمور أخذت تسوء مع ازدياد القصف، صار الناس يتوجّسون من بعضهم، وبدأ النزوح عن المنطقة. في البداية رفضنا الخروج، لكن المداهمات ازدادت، وازداد خطر حدوث اشتباكات. وصار لا بدّ من الخروج.

جاءت السيارات لنقلنا. انقسمنا إلى مجموعات دون أي تنظيم. فذهب ابني ذو العشرة أعوام وحده مع مجموعة، وزوجي في مجموعة أخرى، وأنا وباقي الأولاد مع مجموعة ثالثة، ونقلونا إلى منطقة الشبابية، بالقرب من بابا عمرو.

بعد يومين، التحقت بنا المجموعتان. كان هناك أخوات زوجي ولم يكن معهم زوجي أو ابني. خفت كثيراً، وبكيت كثيراً، وخاصة بعد أن عرفنا بمجزرة كرم الزيتون التي حدثت عند خروجنا وراح ضحيتها 360 طفلاً.

بقيت ثلاثة أشهر لا أتوقف عن البكاء. أتابع على التلفزيون، كالمجنونة، صور الأطفال القتلى في المجزرة، وأدعو الله ألّا يكون بينهم، وأدعوه أن يساعدني لأعرف هل هو حيّ أم ميت. كنت أعيش بين الأمل بعودته، واليأس منها، وصرت عصبية أضرب أطفالي الآخرين.

"كنت أعيش بين الأمل بعودته، واليأس منها"

عرفت أخيراً أنه كان موجوداً مع المجموعة التي ذهبت إلى قرية تلبيسة، فذهبت مع أقربائي لنأتي به. كدت أجنّ من الفرح عندما رأيته. عجزت عن الكلام ورحت أبكي وأبكي.

لم تكتمل فرحتي لأن زوجي لم يعد. وعرفنا بعد فترة أنه استشهد يوم خروجنا. وباستشهاده فقدت معيلنا الوحيد. فقرّرت أن أرحل مع أطفالي الصغار إلى مخيمات النزوح في لبنان.

مرّت ثلاث سنوات تقريباً على وجودنا في المخيم. نعيش على مساعدات الأمم المتحدة التي تقلّ يومياً. تعيش معنا والدة زوجي وهي سيدة كبيرة معاقة، ووالده وهو رجل مسنّ، وهما بحاجة إلى من يعتني بهما، ولا يوجد غيري للقيام بذلك. أنا حزينة لأني لم أستطع تسجيل الأطفال في المدارس.

وكلنا أمل اليوم بالعودة إلى ديارنا، وبعودة سورية إلى سابق عهدها!

أنا متفائلة، ولن أقطع الأمل بعودتنا.. لن أقطع الأمل!

تعبنا كثيراً، ولا بدّ من نهاية لما يحدث!

«بكرة تجي؟»

سحر حسن

(الحسكة)

كانت حياتنا آمنة، وحتى لمّا انتشرت المظاهرات في كل مكان، ما كان يصل إلينا في الريف إلا أخبارها، وأخبار الخطف والقتل والاعتقالات. وفي يوم 25 كانون الثاني وصلت المصائب إلى بيتي. ففي هذا اليوم من ثلاث سنوات تقريباً خطفوا أختي التوأم: سمر.

سافرت سمر إلى الحسكة لشراء بعض الأغراض، ولم تعد من ذلك اليوم. نحن لسنا أغنياء لندفع فدية للخاطفين، ولم يكن أبي ولا زوجي ولا زوج أختي من المسؤولين. كيف اختُطفتْ؟ مَن خطفها؟ ولماذا؟ أسئلة كثيرة لا نملك أيّ إجابة عنها.

لأختي ثلاث بنات صغيرات، وباختطافها صرتُ مسؤولة عنهن. وعندما يسألنني: وين أمي؟ أقول لهن: بكرة تجي!

عندي أمل بأنها ستعود، وكلما دقّ الباب يخفق قلبي، لكن ظنّي في كل مرة يخيب. صرت أراها في أحلامي سجينة في أماكن ضيقة كزنزانات أو حفر، تصرخ وتمدّ يدها لأساعدها، وأنا عاجزة عن مدّ يدي. وأكثر من مرة أفقت كالمهووسة في الليل وخرجت في الشارع أناديها، لشعوري بأنها قربي.

"من جديد عادت أختي في الأحلام. صرت أرى معها ابني"

مع الأيام ساءت الأحوال كثيراً، وظهرت المجموعات المسلحة بأسماء مختلفة. ووصلت الفصائل التكفيرية المتشددة، وفرضت علينا الحجاب ومنع التدخين، وضيّقت علينا حياتنا، فبدأ الناس بالهرب. لكن أملي بعودة أختي، وبناتها اللواتي بقين أمانة عندي كانا يمنعاني من السفر. لكن في شهر أيلول، لم تعد الحياة ممكنة، وارتأى الوجهاء أن يخرج أهل القرية، بعد أن طمأنونا بأن طريقنا سالمة.

ما إن خرجنا حتى بدأت القذائف تهطل علينا كالمطر، أغمي علي، ولم أعد إلى

رشدي إلا في قرية قريبة. هناك، أخبروني أن ابني الصغير ذا الأربع سنوات استشهد بالقصف. قالوا لي إنهم دفنوه في القرية. ابني الصغير راح دون أن أراه. صار ملاكاً بين يدَي سمر أختي.

من جديد عادت أختي في الأحلام. صرت أرى معها ابني.. تُطعمه، وتُشربه، وتعتني به، وكانت تلك وسيلتي للصبر والسلوان.

أنا كأيّ أمّ وأيّ مواطنة سورية..

أتمنّى أن يعود السلام والخير لبلدنا. أن لا يذهب دم أولادنا ودموعنا سدى!

وأتمنى من الله أن يلهم الصبر لكلّ أمّ فقدت غالياً!

ويوم الثلاثاء عاد شهيداً

عزيزة ملا

(الحسكة)

عام 2011 جئنا من القامشلي إلى الرميلان. وحين وصلت الثورة إلى محافظتنا، كنا مع الثورة. لكن الأمور بدأت تصبح خطيرة مع دخول فصائل تكفيرية متشددة إلى قرية قريبة من الرميلان.

"وعدني أن يعود بعد ثلاثة أيام. ولم يكذب"

عندي سبعة أولاد، كلهم في المدارس والجامعات. و«زانا» كان في الصف التاسع عندما انضمّ إلى معسكرات التدريب، وبدأ يتدرّب على السلاح. صار يغيب عن البيت ليذهب في دوريات حراسة إلى المنطقة الحدودية بين سورية والعراق.

بعد ذلك صار يشارك في القتال. هو الصغير، مدلّل البيت، يريد أن يحارب على الجبهات؟ لكنه كان عنيداً، ومندفعاً، يريد أن يكون دوماً الأول في كل شيء. حتى في المقبرة قبره في الصف الأول، رغم أن كثيرين استشهدوا قبله.

عندما استشهد صديقه الحميم «كدر»، صار يراه في مناماته. ازداد خوفي عليه ورجوته أن يترك القتال، لكنه قال إن بقاءه في البيت خيانة لصديقه، وعاد إلى القتال. في إجازته الأخيرة، توسلت إليه أن يبقى فوعدني أن يعود بعد ثلاثة أيام. ولم يكذب، سافر يوم الأحد، ويوم الثلاثاء عاد شهيداً.

لا أصدّق أنه ذهب. ما زلت أشعر بروحه هنا، ما زلت أراه في منامي، وما زلت أراه بين أصدقائه كلما عادوا من الجبهة. زانا لم يذهب، زانا باقٍ في ذاكرتي وذاكرة كل الناس. باقٍ في الأطفال الذين ولدوا وتسمّوا باسمه.

«قلتلك لا تروح هالمرّة!»

فاطمة إبراهيم

(القامشلي)

لم يكن محمد قد أكمل عامه العشرين عندما التحق بمعسكر التدريب على القتال في القرى المحيطة بالرميلان استغربنا جداً، فهو المدلّل الذي يحب الحياة المرفّهة. طالما رجوته أن يسافر فيقول: كيف أذهب وأترك الناس هنا؟

في غيابه، كنت ألازم البيت خوفاً أن يأتي ولا أراه. وكان يأتي إجازة كل شهر أو شهرين. كلّ همي كان أن أعرف كيف يعيش؟ كيف يأكل؟ من يغسل ثيابه؟ كان يهتمّ بمظهره وهندامه، لكن الحرب غيّرته كثيراً وزهد بكل شيء.

كنت، عندما يأتي في إجازاته القصيرة، أحاول إقناعه بأن يبقى ولا يحرق قلبي، فيقول: «وهدول الأمهات اللي احترقت قلوبهن؟ أنا منشان كل هالأمهات بروح بحارب. ما بقدر أقعد أراضيكِ وهالأمهات حزينة!».

في العيد انتظرناه، ولم يأتِ في اليوم الأول. وفي اليوم الثاني اتصلوا بأخيه ياسر، فخرج مسرعاً كالملدوغ. خاف زوجي وقال: «خلص.. ابننا راح!»، تعوّذت من الشيطان ورفضت أن أصدق.

"هل توجّعت حين ضربوك الرصاص؟ من مسح عرقك؟"

في اليوم التالي، فوجئت بزوجي يعطيني حبّة لوجع الرأس، قلت له إني لست بحاجة لها، فأصرّ أن أشربها وكان جداً حزين، سألته: أخبرني ما بك؟ شو صاير؟ فبدأ بالبكاء، وعندئذٍ زعقت بصوتي: «لا حدا يقول لي ابنك صارلو شي!». هزّ زوجي رأسه، والتمّ الجيران على صراخي، وظللت أبكي حتى آخر النهار.

راحت صور طفولته وشبابه تمرّ أمامي، وأردت أن أراه. ذهبنا إلى القامشلي، دخلنا إلى الجامع، وفجأة توقفت دمعتي. استغربت من هذا، وسألت نفسي كيف لم أمت من البكاء. رجوت الجميع أن يخرجوا. اقتربت من التابوت، اقتربت من وجهه، قبّلته، ثم

حاكيته: «قلتلك لا تروح هالمرّة.. اقعد.. لكنك قلت لي: أم رفيقي تبكي عليه، وأنا أقعد جنبك! لا، لازم روح... رحت واستشهدت!».

سألته: «هل توجّعت حين ضربوك الرصاص؟ من مسح عرقك؟ كيف طلعت روحك؟ أمك ما كانت جانبك لتمسح لك على راسك. آخ، حرقت لي قلبي يا أمي!».

أتمنى أن تنتهي الحرب وتبقى الأرض لنا، عندئذٍ سأشعر أن دم ابني لم يذهب سدى.

«هيك اللّٰه كاتب!»

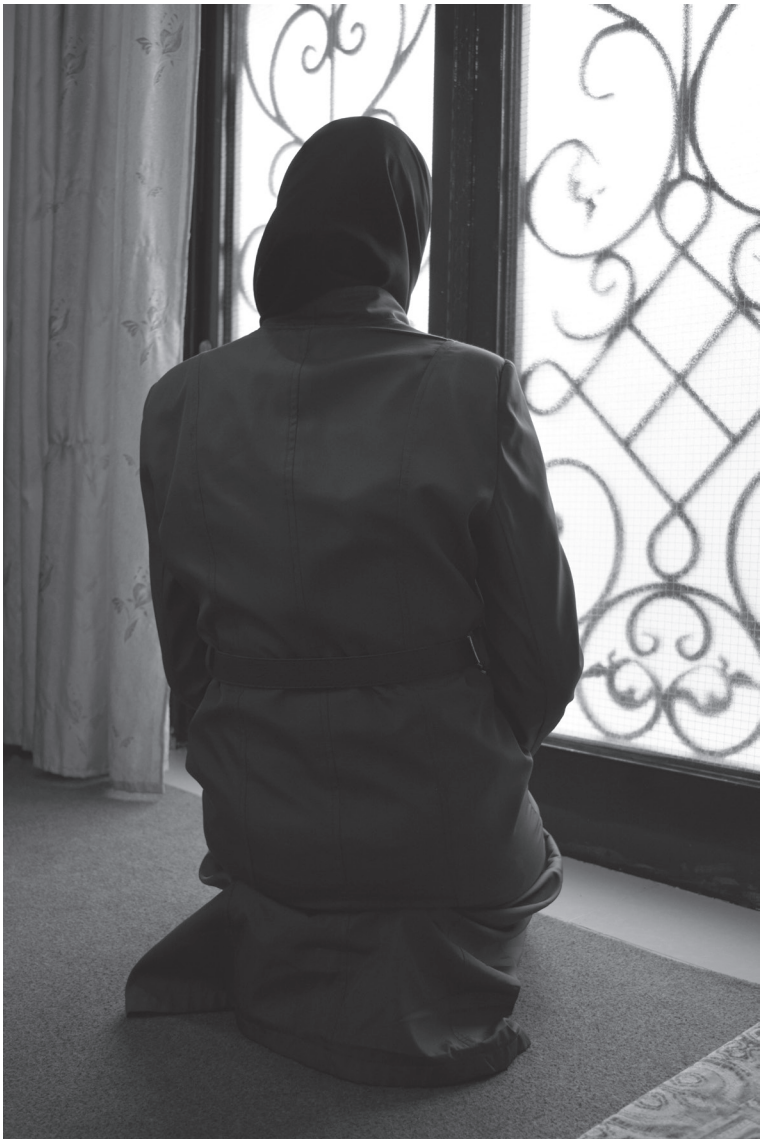

فاطمة

(جوبر)

«كنا عايشين ومو صاير علينا شي، قاعدين ببيوتنا وولادنا ورجالنا معنا، بس فجأة هيك صار، مو بإيدنا، اتحاصرنا بالغوطة، وما عاد قدرنا لا نفوت ولا نطلع، مرقت علينا شتوية قاسية كثير ما في شي يدفّينا. كان عنا شوية طحين.. أعمل خبز وبسكوت للولاد، بعدين خلّصنا كل شي بالبيت، لمّا إجا الصيف صار الوضع أحسن شوَيّ، صرنا نزرع خضار ونقدر نطعمي ولادنا. بآخر الصيفية، كان زوجي راجع عالبيت، صابتو قذيفة ومات.

"أرملة مع 3 ولاد، كيف بدّي كمّل هالحياة ما بعرف!"

كان الحصار قاسي كثير، خوف وجوع وموت. نكون قاعدين، فجأة تصير القذائف تنزل علينا، وما نعرف منين. كثير اتعذّبنا، ولما ضربوا كيماوي كنا نايمين أنا والولاد، وزوجي فايق، شمّ ريحة غريبة وسمع العالم عبتقول إنو عبيضربوا كيماوي، وصاروا ينادوا بالجوامع منشان الناس تسمع وتفيق، فيّقنا من النوم وطلعنا على سطح البناية منشان نشمّ هوا نظيف، مات ناس كثير كثير يمكن في أكثر من ألفين شهيد بالغوطة، صار الضرب بالليل وكل الناس نايمي.. منشان ما يحسّوا على شي.

لما مات زوجي ما عاد قدرت ضلّ بالغوطة، دفعوا أهلي مصاري كثير لقدروا يطلعونا، وهلق إلي سنة أنا وولادي قاعدين معهم بالسويداء. هون أنا مو مبسوطة ولا مرتاحة، بس شو بدّي أعمل؟ هيك الله كاتب!

رفقاتي اللي من عمري لسا ما تزوجوا، وأنا عمري 25 سنة، أرملة مع 3 ولاد، كيف بدّي كمّل هالحياة ما بعرف. لو أعرف مين اللي قتل زوجي ما كنت سامحتن! بس أحسن إنو ما عرفت منشان ما إحمل حقد بقلبي على ناس محدّدين.

البلد اتهدّمت وصارت عالأرض، بس منقول انشالله بتنحلّ الأمور ونقدر نرجع ونبني البلد، بلدنا ما فيها طائفية والناس بتحب بعضا ومتعايشي مع بعضها، وماكنّا

نفرّق حدا عن حدا، كل هالحرب من الأساس غلط، في ناس طلعت عمتنادي بالحرية، وأنا وأهلي وزوجي ما كان إلنا علاقة بأي شي.. بس كمان تعرّضنا للأذى متلينا متل كلّ هالعالم، يا ريت ما صار كل هالشي وظلّينا عايشين بأمان، بلدنا سورية ما في متلها بالعالم كلو».

أبعد بسنتمتر واحد

أم عصام

(الحراك)

كان ابني عصام مدللاً جداً، فهو الحفيد الأول في أسرة زوجي، وكان محبّاً ومحبوباً، ورقيقاً جداً.

لم يكن متميزاً في مدرسته، لكن مدرس اللغة العربية توقّع له مستقبلاً أدبياً زاهراً، فقد كان يكتب قصصاً جميلة، نهاياتها سعيدة، ولم يكن يعلم أن نهاية قصته (حياته) ستكون حزينة جداً.

قبل أن يدخل الجيش القرية هربت بعض العائلات خوفاً مما قد يحدث، لكننا لم نشأ الرحيل، فليس لنا مكان نذهب إليه. وفي يوم دخوله، كنا في المنزل أنا والأولاد، كان صوت القصف مرعباً، وأخذت ابنتي تبكي من الخوف. قررنا الذهاب إلى ملجأ بعيد ولم تستطع ابنتي السير فحملها أخوها بين يديه.

في اليوم التالي ساد هدوء غريب في الأجواء. أراد عصام أن يذهب ليجلب بعض المؤن ويساعد الرجال، وحاولت إقناعه بأنه لا يزال صغيراً، لكنه لم يقتنع بل قال إني أستطيع الاعتماد عليه، وإنه سيكتب قصة عمّا نمرّ به، يجعلني بطلتها.

بعد مغادرته بساعة جاءني أقارب يستأذنونني بدفن زوجي مع باقي الشهداء.

ذُهلت لما أسمع. زوجي! قلت لهم إنهم مخطئون فزوجي ليس في القرية. اتصلت بالعائلة التي يعمل عندها وأخبروني أنه غادرهم البارحة وعاد إلينا. فتأكدت أنه قتل لدى محاولته دخول القرية في الليلة السابقة.

"قال إنه سيكتب قصة يجعلني بطلتها"

طلبت من الرجال أن يأخذوني إليه لأودّعه، فرفضوا بقوةٍ فاجأتني. انتظرت عودة ابني عصام. حلّ المساء ولم يحضر، سألت بعض الشباب عنه، لكنهم كانوا يتهرّبون من الجواب.

لم أعلم بأنه دفن إلى جانب والده إلا في اليوم التالي.

فقدت عقلي، زوجي وابني!

علمت أن عصام قُتل برصاصة في القلب. أيّ قاتل هذا؟! لماذا لم يخطئ قلب طفلي الصغير؟ كان يمكن أن ينجو لو جاءت الرصاصة أبعد بسنتمتر واحد.

لكن القاتل لم يخطئ هدفه، وابني لم ينجُ.

أرسلت ابنتي مع أختي وزوجها إلى دمشق، ورجوتهم أن يأخذوها معهم إلى الأردن، ثم لحقت بهم بعد عدة أسابيع. أُجبرت على المكوث في مخيم الزعتري عدة أشهر حيث رأيت وسمعت من القصص ما تقشعرّ له الأبدان. لا مكان في المخيم إلا للذلّ والإهانة!

نعم، فقدنا الكثير، لكن كلنا أمل بأن نعود، ونبني ما دُمِّر وتهدم، ونزرع أرضنا التي حُرِقت.

لست حاقدة على أحد، ولكني أرغب في رؤية من قَتلوا شبابنا وهم يحاسَبون على فعلتهم، لن أرتاح والقتلة يسرحون بيننا.

سنسامح بعد أن نحصل على حقّنا في محاسبتهم!

حتى لا أخسر ابني

كوردستان

(كوباني)

كنت أعيش في «كوباني» حياة سعادة وهناء مع زوجي وأولادي الأربعة. عام 2013 اضطررت للنزوح بسبب الأحداث. كان داعش مسيطراً على المنطقة. وكنت كامرأة لازم ظل لابسة عباية سودا ومغطية كل وجهي وإيدي، ومش لازم أي شي يبيّن من جسمي. زوجي ذهب إلى لبنان ولم يرافقنا لأنه كردي، فهو كافر حسب وجهة نظر داعش. قضيت وأولادي حياة صعبة. كانت مياه الشرب تنقطع، وكنت أخاف على ابنتي الكبيرة لأنها صبية، ولا شك أن الدواعشة سيؤذونها، وأخاف على ابني لأنه مراهق، ولا شك أنهم سيأخذونه لمبايعتهم.

"تيقّنت إنه بلّش ابني يضيع"

كنت مرّة أحمل دلو ماء بكل يد، كاشفة عن وجهي كي أتبيّن طريقي. وقفت سيارة من داعش وصرخ أحد راكبيها: غطّي وجهك! ردّيت: ما فيني شوف قدامي! فقال آخر: لا تحكي! صوتك عورة، وإذا رأيناك مرة ثانية هنا سنجلدك أربعين جلدة!

أولادي كانوا بالمدرسة، وأخبرتني ابنتي أن أشخاصاً يأخذون ابني معهم كل يوم قبل الدخول إلى المدرسة. وأنهم يدرّبونه على السلاح. سألته فأنكر، وفي اليوم التالي لحقته، فوجدت ما قالته أخته صحيحاً. طار صوابي، وتيقّنت إنه بلّش ابني يضيع، وخاصة بعد أن صار متديناً ومتشدّداً بأفكاره. وصار يحضر اجتماعات داعش وفعالياته.

أخذت أفكر بطريقة نطلع فيها من المنطقة حتى لا أخسر ابني. وذات صباح، أخذت ابني الصغير المريض ووثائق طبية تثبت مرضه، وذهبت لمقابلة من يسمّونه الأمير. حاول الحرّاس منعي، وهدّدوني بالقتل، لكنني أصررت ودخلت. وبعد نقاش طويل سمح لي بالسفر. حضّرت الوثائق اللازمة، والقليل من الثياب، ثم أخذت الأولاد

ومشينا حتى وجدنا سيارة. وعندما ابتعدنا عن المدينة، كاشفت الأولاد بخطّتي. غضب ابني، وعرفت أنه كان سيلتحق بداعش.

وصلنا إلى الحدود بعد 17 ساعة من العذاب. لكنه كان عذاباً أرحم من الذلّ الذي لاقيناه لاحقاً.

أتمنى أن يأتي اليوم الذي يقولون لنا فيه ارجعوا! والله إذا رجعت، ما عاد اطلع منها، لو عطوني الدهب هون. يجب على أصحاب القرار في الخارج، أن يحسّوا بمعاناة الشعب، إلى أين يأخذوننا بعد اليوم، ألا يكفي كل ما عانيناه نحن السوريين؟

للأسف، انسرقت منا أحلامنا!

هبة

(ريف دمشق)

ذات يوم من عام 2012، اتجهت بسيارتي الملأى بمواد طبّيّة، وأكياس دم، وحرامات، وأدوية أطفال، باتجاه دوما. اقتربت من الحاجز. كنت مطمئنّة، فأنا ابنة المنطقة، ومن «الأقلّيات»، ما يعني أنه لن يتم تفتيش سيارتي. عند الحاجز، انفتح باب سيارتي بلحظة، وامتدّت أيادٍ قوية شدَتني من شعري، أدخلَتْ رأسي في كيس أسود، أخرجتني، وضعت في يدي القيد، ودفعتني إلى داخل سيارة أخرى. استغرقت العملية دقيقة ونصف، لم يبقَ خلالها عسكري على الحاجز لم يمدّ يده عليّ، أو لم يُسمعني كلاماً بذيئاً.

"هل كان ابني في البيت؟ ماذا حلّ به؟ هل ضربوه؟"

قادوني إلى مكان ليس بعيداً. أخذوا أغراضي، وفتّشوني بطريقة بذيئة. بقيت ساعتين (عرفت لاحقاً أنهم ذهبوا خلالهما إلى بيتي، ونهبوا أغراضي وحاسوبي، وهدّدوا ابني ذا الثلاثة عشر عاماً)، ثم نقلوني إلى مقرّ الفرقة الرابعة. ومنها إلى مكان آخر.

كان في الكيس خرق أخذت أتعرّف من خلاله على المكان. كنت في غرفة فيها سرير عمليات يُستخدم للتعذيب. ورأيت حاسوبي مفتوحاً أمام المحقق فعرفت أنهم داهموا البيت. ذهب كل فكري وقتئذٍ نحو ابني، هل كان في البيت؟ ماذا حلّ به؟ هل ضربوه؟ هل اعتقلوه؟ هل آذوه؟ كنت لا أريد في هذه اللحظة إلا أن أطمئن عليه.

كانت تمر أيام لا أُطلب فيها للتحقيق، وأحياناً يطلبونني ويبقونني ساعات بلا كلمة، ثم يعيدونني. بقيت في المعتقل تسعة أشهر تعلمت خلالها أشياء كثيرة. تعلمت كيف أكذب لأحمي نفسي وغيري. تعلمت أن أتأقلم مع الجوع والقمل وغياب النظافة (بقيت مرّة أربعين يوماً دون حمّام).

بعد خروجي من المعتقل عرفت الذي وشى بي. لكنني لم أفكر ولا أفكر بالانتقام منه. لكنني متأكدة أنه، ذات يوم، سينال جزاءه.

أتمنى أن أرى سورية دولة قانون وعدالة، دولة مدنية، نحقّق فيها ما طلعنا من أجله. لقد بدأنا بحلم، ومشينا بالثورة آملين بالوصول إلى ما نريد. لكن للأسف انسرقت منا أحلامنا...

أتمنى أن يتوقف نزيف الدم، ونعيش، ونربّي أولادنا بشكل صحيح ونعي أنفسنا. «لأنو لو كان القرار بإيد الشعب السوري ما كنّا وصلنا لهون...».

كان وجهه كأنه نائم

هيام إبراهيم

(القامشلي)

«ما ظل أمّ هون ما شافت الوجع، ما احترق قلبها، والوجع بيختلف من أمّ لأمّ، في أمهات عايشات على الأمل، وفي أمهات فقدن الأمل.

عندي ثلاثة أولاد، اثنان منهم خارج البلد. كنت دايماً أحلم أن أزوّج ابني، وأبني له بيتاً، وشوف أولاده، وأفرح به متل ما كل أم بتفرح بأولادها. سنة 2013، خلّص ابني «كدر» الصف التاسع والتحق بالوحدات. بقي، في البداية، في البلدة نفسها، ثم انتقل إلى الجبهة. تنقّل من مكان إلى مكان. لكن – لأنه شاطر بالكومبيوترات وذكي – أخذوه على قسم الإعلام.

"كنت حاسّة جسمي عم يحترق: أكيد صايرله شي"

وصل داعش إلى المنطقة وأراد أن يسيطر عليها، فذهب كدر وأصدقاؤه للتصدي له. ما حدا قال له، هو قال لحاله. وبعد فترة قصيرة انجرح برجله، فطلّعوه على تركيا منشان العلاج، وبقي شهرين، ورجع بعد ما استشهد أحد رفاقه. لما كان يجي إجازات، كنت أطلب منه يظل عالحواجز وما يروح عالجبهة، لكن كان يتضايق ويقول : «إذا حدا مرة تانية بيقول لي لا تروح على جبهات القتال، ما رح ارجع عالبيت!».

آخر إجازة إجا فيها قبل ما يستشهد كانت 7 أيام، بس هو بقي منها بس 3 أيام، ترجّيناه يبقى أكتر، بس ما قبل، واستشهد بعد 3 أيام.

أخبروني أنه خرج إلى الجبهة للتصوير، وفي طريق العودة، اتّجه ورفاقه إلى قرية اسمها «فلسطين»، وعلى أبوابها انفجر لغم أرضي فقتله هو وواحد ممن كانوا معه.

الليلة اللي استشهد فيها ما قدرت نام. كنت حاسّة جسمي عم يحترق، وقلت للكل بالبيت: أكيد كدر صايرله شي. تاني يوم جابوه من مشفى ديريك، ووصّلوه على البيت. فتحوا التابوت وشفته، كان وشّه كأنه نايم، كتير حلو. وبسته وضمّيته. كل الجيران كانوا هنا: كراد وعرب وإيزيدية، بكوا عليه أكثر مني.

بعد أربع سنوات من التضحيات، الشعب السوري بشكل عام والشعب الكردي بشكل خاص، ما رح ننسى أبناءنا، بس ما بدنا أمهات تانية تفقد حدا من أولادها!».

«أشو أحكيلك؟»

أم مي

(حلب)

«أشو أحكيلك؟

إنو بنتي اغتصبوها قبل ما تطلع من عندن؟

ما هنّن اغتصبوا البلد واللي فيها!

كلنا مغتصَبين.

بنتي ما عابها شي باللي صار، لسّاتها حلوة وعم تتعافى، معنوياتها أحسن بكتير.

الحمد لله، لم تخرب نفسيتها، وبقيت كما كانت: كلها أمل وحياة. أحياناً تبكي كثيراً، وتقول لي: أنا لا أبكي على حالي، كثيرات مثلي عُذّبن وتم الاعتداء عليهن. أنا أبكي على البلد، أبكي على الضحكة التي سرقوها منّا وما عدت شفتها بعيونك.

"كانت مثل أول يوم تقول لي فيه ماما وهي صغيرة"

كنا في حلب. وكانت ابنتي في الجامعة. ولما بدأت المظاهرات شاركتْ فيها. ذات يوم، بدأ الأمن يعتقل المتظاهرين، فتخفّت عند أقاربها وبقيت أياماً عديدة، ثم عادت إلى البيت، وتوقفت عن الذهاب إلى الجامعة. وبعد فترة قصيرة، جاءت مجموعة من الشباب نصف الملثمين وأخذوها من البيت بالقوة. اتصلت بأبيها فأخبرني عامل الدكان أنهم اعتقلوه من ساعة. راحت البنت وأبوها بالساعة نفسها.

مرت ستة أشهر دون أي خبر عنها. فجأة، ذات يوم، توقفت سيارة أمام البناية ونزلت منها ابنتي. ساقها مكسورة، لم تستطع الوصول إلى الباب لتقرعه. سقطت على الرصيف. أسرع الجيران لمساعدتها. فرحنا وبكينا أمّا هي فصمتت. بقيت شهرين لم تنطق بكلمة واحدة. اشتقت لصوتها. كانت تحكي فقط، وبصوت خفيض، مع أمّ صديقةٍ لها استشهدت تحت التعذيب.

قررت أن نذهب إلى تركيا لمعالجتها، حضّرت أغراضنا، وحجزت السيارة. ولكن صباح يوم السفر قررت أن تتكلم. قالت لي: ماما! ما بدّي نطلع، أنا مليحة، لازم نبقى هون، لسّا شغلنا ما خلص.

اللحظة التي حكت فيها كانت مثل أول يوم تقول لي فيه ماما وهي صغيرة. تراجعتُ عن قراري مؤقتاً، لكن الوضع تفاقم فأخذتها وخرجنا إلى تركيا. الآن نحن بأمان، وعادت ابنتي تعمل وتحكي وتضحك. ونحن ننتظر اليوم الذي نرجع فيه إلى سورية.

غيّرت ابنتي اسمها، وأصدقاؤها ينادونها سورية.. سورية البلد التي اغتُصِبت لكن رجعت أقوى، وإن شاء الله سترجع أحلى مما كانت وأفضل.

الآن لا حقد عندي، بل كلّي أمل. بالنسبة إليّ، سورية هي الدنيا كلها!».

دعاءان

ميادة

(طرطوس)

كثيرة هي الرسائل التي تلقيتها على صفحتي الشخصية على الفيسبوك من أشخاص أعرفهم، وآخرين لا أعرفهم، رأوا صورة مرح فاستوقفهم وجهها الملائكي. رسائل العزاء تعيد غصّتي بفقدان ابنتي ذات العشرين عاماً. ابنتي التي اختطفتها قذيفة وهي في طريقها إلى دمشق. تعيد إلي صورة خصلات شعرها التي تناثرت على المقعد. صورة يديها الدافئتين اللتين كانتا تحضنان يدي وتداعبانها، وابتسامتها التي كانت تملأ البيت. لقد فقدتها جسداً، لكنها ما زالت هنا روحاً تعيش معي في أرجاء البيت. أبحث عنها في شقيقاتها. أعيد تكوينها ورسم صورتها أمامي. أختها تلك لها سبلة الشعر ذاتها، والأخرى تتكلم بالطريقة ذاتها، والثالثة تضحك مثلها. بينما أستكمل قراءة الرسائل وصلت إلى رسالة أم مالك.

أم مالك امرأة دمشقية لا أعرفها، استوقفتني رسالتها بكلماتها الصادقة وعمق إحساسها، ومشاركتها لفجيعتي. هي أم لابنة اسمها مرح أيضاً، بعمر ابنتي، أصابتها شظية قذيفة في منطقة باب توما، في دمشق، جعلتها جليسة الفراش.

بين مرح الشهيدة ومرح الشهيدة الحية عقدت صداقتي مع أم مالك وتبادلنا أرقام الهواتف. كانت عزاء لي وكنت عزاء لها، لا يكاد يمرأسبوع دون أن نتبادل الحديث، ودائماً كنت أطلب أن أتحدث مع «مرحها» لأمنحها جرعة شجاعة تساعدها على تحمّل مصابها. مرّت الأيام وأواصر صداقتنا تزداد قوة، ومرح تعيد لكلتينا أملاً بالحياة.

"أبحث عنها في شقيقاتها. أعيد تكوينها ورسم صورتها أمامي"

سافرت إلى دمشق لقضاء عمل. كانت أم مالك تطمئن علي طول الطريق، وتصرّ على أن أزورها في بيتها في حي الميدان. تردّدت قليلاً، لكنني أذعنت أمام إصرارها. وكانت زيارتي لهم. ضممت «مرحها» وشممتها وقبلتها وكأنني استعدت «مرحي». جلسنا وبكينا

كثيراً، وأصرّوا أن أبيت الليلة عندهم. وشاءت المصادفات أن يرد اتصال من ابن أم مالك يخبرها أنه على وشك ركوب البحر طالباً رضاها ودعاءها، فقالت له: سيرافقك دعاءان، وتوجّهت نحوي وقالت: ضمّي دعاءك إلى دعائي فأنت أم لشهيدة وأبواب السماء مفتوحة لدعائك، فدعوت له من كل قلبي أن يصل إلى برّ الأمان، وألّا يطول غيابه ليعود إلى حضن والدته، ووطنه، وإلى مرح التي ما زالت على قيد الحياة.

فقدت في هذا اليوم...

أم محمد

(القلمون)

كنا نعيش في منطقة القلمون، حين أخبرونا أن الجيش سيدخل المنطقة. خفنا من احتمال حدوث اشتباكات، فقرّرنا أن نخرج لفترة ريثما تهدأ الأوضاع. بدأ القصف وطال بيتنا حيث كنت مع زوجي وأولادي وأسرة زوجي. كنت أحضّر الفطور في المطبخ، بينما ابني مع أبيه في ساحة البيت، وابنتي مع عمّتها في بيتها المجاور.

"وجدت ابني ذا السنتين مختنقاً تحت الركام"

كانت الطائرات تقصف، وفجأة ألقت المروحية برميلين متفجرين، سقط أحدهما في منزلنا والآخر في منزل العمّة. فقدت الوعي، وعندما استيقظت كان الغبار والدخان يغطّيان المكان، والبيوت مدمّرة. خرجت إلى ساحة الدار لأجد أخوات زوجي قتيلات حيث كن جالسات، ولكنني لم أجد أولادي. بحثت عن زوجي، كان لا يزال حيّاً، عالقاً تحت الأنقاض. سألته: أين الصبي؟! قال إنه لا يعلم، وطلب مني ألا أدوس على الردم خشية أن يكون حيّاً تحته. بحثت عن ابنتي ولم أجدها هي الأخرى. عندئذٍ جاءت أخت زوجي تحملها بين يديها، وتصرخ: لقد وجدت ابنتك! كانت الصغيرة قد استشهدت فوراً. عدت إلى المكان الذي تركت فيه زوجي وبدأت أزيح الركام بيدي، حتى وجدت ابني ذا السنتين مختنقاً تحت الركام.

فقدْتُ في هذا اليوم ابنتي وابني، وأصيب زوجي، وبُترت ساق أخته، واستشهدت أختاه الأخريان.

دفنت ولديّ في ذلك اليوم أحدهما إلى جانب الآخر، فقد كانا متقاربين جداً، يلعبان معاً، ويأكلان معاً، وقد رحلا وفارقاني معاً.

انتقلنا إلى لبنان واستمرّ علاج زوجي سنتين حتى شفي تماماً، وأنجبت طفلاً أرى الحياة في عينيه. وسنسافر قريباً إلى السويد، لكنني لا أريد الابتعاد عن سورية.

في البداية لم نكن مع أي طرف من الأطراف، وليس لنا علاقة بما يحدث. لكن بعد خسارتي لولديّ تغيّر موقفي، لكني بقيت مؤمنة بأن الربّ سينتقم لنا.

قد يكون من الصعب أن تعود الأمور إلى سابق عهدها، ولكن عندنا أمل بالعودة وبمحاسبة كل المجرمين، فلن يهدأ لنا بال وقتلة الأطفال بيننا.

في سورية، الجميع خاسرون.. وآن لهذا الدم أن يتوقف!

من أين أبدأ؟

أم نوفل

(ريف حماة)

من أين أبدأ؟ لا كلام يمكن أن يصف حجم الفاجعة. استشهدت أختي وأولادها دفعة واحدة، وبقي لي منها هذا الصغير الذي يصارع الموت، والذي يبدو أنه سيلتحق بأمه وإخوته قريباً.

هو الآن واحد من أولادي، أحبّه وأرعاه، ولكنني لا أستطيع تمالك نفسي كلما احتضنته، يغلبني البكاء، وعندما يبكي ترانا نبكي جميعاً لأجله.

كنا نعيش في القرية، وبيتي فيها محصّن أكثر من غيره، فهو مبني من الباطون والإسمنت بعكس باقي بيوت القرية، وكان إخوتي يلتجئون إلى منزلي كلما تعرضت القرية لاشتباكات.

كنا في القرية من طوائف متعددة، والجميع يعيشون بسلام. نواسي بعضنا في المصاب ونفرح معاً في الأعراس، ورغم كل ما حدث، وكل ما أشيع عن الطائفية، لم نتعرّض لموقف واحد يهزّ ما اجتمعنا عليه، الإلفة والمحبة.

"كيف سنبرر لهم ما يحدث من مجازر بحق طفولتهم؟"

عندما بدأت الاشتباكات تشتد شراسة، خرجت أنا وأولادي إلى حماة، فلدينا منزل هناك، وبقي من بقي من أهلنا وجيراننا. تركت مفتاح المنزل مع أختي لتنتقل إليه فهو أكثر أماناً من منزلها الطيني.

وفي إحدى الليالي اشتد القصف على القرية، وكان هذه المرة بالصواريخ وقد اخترق أحدها غرفة النوم التي كانت أختي تختبئ، مع أولادها، فيها. استشهدت فوراً هي واثنان من أطفالها، وبقي هذا الصغير شاهداً مشوّهاً على المجزرة البشعة.

في الصباح لملمت العائلات شهداءها ودفنتهم بأسرع ما يمكن خوفاً من تجدد القصف، هناك أمهات لم تستطع توديع أطفالها أو إخوتها، وهناك من لم يبقَ من جثته إلا أشلاء جُمعتْ، ودُفن العديدون دون مراسم، ودون نظرة وداع.

ابن أختي هذا في حال ميئوس منها، لم يشأ الأطباء إبقاءه في المشفى، سيموت قريباً، لقد تعلّق به أولادي، وهم يحيطون به طوال اليوم، ابنتي الصغيرة تسألني: ألا أستطيع أن أعطيه من عمري قليلاً ليحيا. وأولادي يسألونني كيف يمكننا مساعدة الأطفال المصابين. ما الذي سأقوله لهم، وكيف سنبرر لهم ما يحدث من مجازر بحق طفولتهم، وكيف سنعيد لهم البسمة التي حُرموا منها؟

نحن مسالمون، أبناء سورية كلهم مسالمون وطيبون، وما يحدث فاق طاقتنا على الاحتمال.

حذاء أزرق

ناديا مراد

(الحسكة)

كان ابني جوان في الثانية عشرة. كان عاقلاً ومجتهداً في مدرسته ويتمنى أن يصبح معلماً. في اللحظات التي يشتد فيها القصف، كنا نخاف كثيراً، فنهرب إلى قبو المنزل ونأخذ الطعام معنا وننام هناك. لكن، رغم الخوف، ما كنا نريد أن نسافر. إلى أن دخلت المدفعية إلى حيّنا في 2015 فهربنا إلى القامشلي.

يوم عيد النيروز، كان الاحتفال في ساحة قريبة من المنزل. وكان جوان مصرّاً أن نذهب للاحتفال، فذهبنا، ووقفت أنا وأخته الصغيرة جانباً. عند الغروب، نعست الصغيرة فعدت معها إلى البيت، وقبل أن نصل إليه حدث انفجار شديد أضاء السماء. جريت أصرخ وأنادي الولدين، وأسرع زوجي إلى الساحة يبحث عنهما. رأيت فتى يجلس القرفصاء في الشارع، ويبكي ويصرخ: كلهم ماتوا.. كلهم ماتوا! انهارت أعصابي خوفاً على ابني. ركضت كالمجنونة، وأنا أترجى الله أن يكون حياً. كنت أقول لنفسي: حتى لو خسر قدماً أو جُرح لا يهمّ، المهم أن يكون حياً.

"ذهبت باكراً إلى الساحة لأبحث عن نظاراته، وقبعته"

لم أجده في ساحة التفجير، فذهبنا أنا وأبوه لنبحث عنه في المشافي. كانت أصعب اللحظات عندما يكشف لنا الأطباء عن وجوه الأطفال الذين استشهدوا لنتعرف إلى ابننا. فجأة ظهر رجل يحمله بين يديه. عرفته من كنزته وعرفه والده من حذائه الأزرق. ركض زوجي باتجاه الرجل ليسأله عن حال الصبي، فأجابه إنه ميت وإنه سيأخذه ليضعه في البراد.

لم أركض باتجاه ابني لأراه، ركضت باتجاهٍ آخر لأبكي وحدي، لأبكي ابني الذي فقدته. في اليوم التالي، ذهبت باكراً إلى الساحة لأبحث عن نظاراته، وقبعته. كنت أبحث عنها بين التراب والدم. رآني بعض الجيران فأعادوني إلى المنزل.

كنا في تلك الأيام كأننا في عيد، فالناس يخرجون من منزل ليدخلوا إلى آخر

للمواساة والتعزية، فما من أحد في الحي إلا وفقد طفلاً أو أكثر، ومنهم من فقد كل أطفاله.

كم أتمنى أن تتوقف هذه الحرب، وأن يحلّ السلام وتتوقف المجازر والتفجيرات!

قلب الأم ليس كأي قلب آخر، ووجعها ليس كأي وجع، هي أكثر من يتوجع ويتألم.

لا أنسى. جوان ينام في قلبي كل يوم، وأصحو على صورته كل صباح.

سأخبِرُكِ في المرة القادمة

إلهام

(الحسكة)

أنا أم لثلاثة شباب، درس منهم اثنان في الجامعة أما الثالث، ماريوس، فلم يشأ أن يتعلم. كان منذ صغره مولعاً بثلاثة أمور: كرة القدم، والموسيقا، والقتال. وفي عام 2013 التحق بمجلس السريان العسكري. قبل ذلك، كان يعمل في تصليح المولدات وفي تصوير الفيديو أحياناً، ويتعلم العزف على الأورغ، لكنه ترك هذا كله وراءه.

كان يغيب لفترات طويلة، وعندما يأتي، كنا نفرش أرض الغرفة ونجلس وحدنا، ونتحدث، محاولةً أن أعلم شيئاً عما يحدث معه، لكنه كان كل مرة يقول لي: سأخبرك في المرة القادمة. كان مصرّاً على موقفه وخاصة بعد أن صار يرى كيف تُدمّر الكنائس وتزال الصلبان.

في آخر زياراته، ذهب إلى المصوّر، وطلب مني أن أحتفظ بصورته. قال إنها ستلزمني حين يستشهد، وإن تلك الزيارة قد تكون الأخيرة. وقال أيضاً إنه لا يريدني أن أبكي، بل أن أهلّل كلما رأيت صورته بين صور الشهداء. غضبت من كلماته، وحاولت أن أردعه عن العودة إلى القتال، بل أغريته بالسفر، لكنه كان مصرّاً على خياره.

ذات مساء، وبينما كان أخوه يتابع الأخبار على الإنترنت، رأى صورته وقرأ خبر استشهاده على موقع داعش. لم يخبرني شيئاً، لكن ابنة أختي استيقظت مذعورة عند الفجر وهي تقول إنها حلمت أن أباها وماريوس قد استشهدا.

"كنت أتمنى لو رأيت قطعة منه على الأقل"

تأكد الخبر وعرفنا أن داعش حاصرته مع رفاقه ثم قتلتهم. وعرفنا أنه ورفاقه قاتلوا حتى آخر رمق رغم أنه كان باستطاعتهم الهرب. حياتي مرّة جداً مذ فارقت ابني، ولا أظن أن النار التي في صدري قد تنطفئ يوماً. أكثر ما يحزنني هو أني لم أره ولم أدفنه بيدي، ربما لو دفنته لارتحت قليلاً. كنت أتمنى لو رأيت قطعة منه على الأقل.

أتمنى أن يحل السلام في سورية. قبل الأحداث كنت أحب السفر جداً، وكنت أشجع أولادي عليه، لكنني الآن أتمنى من كل أم أن تتمسك بأولادها ولا ترسلهم إلى الخارج، فلو قامت كل أم بإرسال أولادها إلى الخارج لن يبقى شباب لخدمة البلد، وبنائه، والدفاع عنه.

أمي أنا جائع

أم آلان

(القامشلي)

لم يكمل ابني «آلان» تعليمه. سافر إلى دمشق، وعمل هناك عشر سنوات، ثم عاد إلى الحسكة وعمل فيها إلى أنهى خدمته العسكرية. حين بدأت الثورة، أصرّ على الالتحاق بالمعركة، كان يقول وهو يضحك : إنْ لم أذهب أنا وغيري فمن يدافع عنا؟

كان يغيب كثيراً، وكان إخوته يعلمون بمكان ذهابه، لكنه كان يطلب منهم ألا يخبروني. مرة قالوا لي إنه في الرميلان، ومن هناك اتصل بي ليخبرني أنه بخير، كنا في نهاية شهر رمضان، ووعدني بأن يأتي لزيارتي في العيد.

في المساء كذلك عاود الاتصال بي، وسألني عن أحوالي، استغربت اتصاله واجتاحتني نوبة بكاء. سألته عن سبب اتصاله، فقال : ادعي لنا يا أمي، نحن محاصرون والمعركة قاسية.

ليلتئذٍ حلمت به قادماً ينادني، استيقظت، قمت من الفراش وركضت لأفتح الباب، سألني زوجي ما الخبر، فقلت له: آلان ينادني.

قضيت ليلتي وأنا أبكي. في اليوم الثاني حلمت به قادماً مع رفاقه، وقال لي: أمي أنا جائع. وفي اليوم الثالث كذلك رأيته محبوساً في قنّ دجاج.

"حلمت به قادماً مع رفاقه، وقال لي: أمي أنا جائع"

جاء العيد، وانقضى العيد، ولم يحضر آلان.

بدأ أخوه البحث عنه وعرف، بعد أيام، أنه وقع مع بعض رفاقه في يد داعش. بقي آلان حياً بعد اختطافه مدة أربعين يوماً، ثم جاءنا خبر بأنه استشهد.

انتشر الخبر في المنطقة. وفي أحد الأيام، حضر موكب كبير من السيارات، والكثير من الأصدقاء والجيران من العرب والأكراد وغيرهم، وعلمت بأنهم قد أحضروا لي جثة آلان.

قلت يومذاك لوسائل الإعلام: ابني لم يدافع عني أو عن أسرته فحسب، ابني دافع عن الجميع عرباً وأكراداً، ابني دافع عن الحرية والكرامة للشعب كله، ابني هدية للوطن.

أنا اليوم أمٌ لشهيد، أجلس مع نساء ثكالى مثلي لنتحدث عن وجعنا، لسن كرديات فقط، إنهن من مختلف القوميات والطوائف، وأبناؤهن استشهدوا في جبهات مختلفة، كل يدافع عن قضيته وقناعاته.

نأمل بأن تنطفئ هذه النار، وندعو الله أن يحمي شبابنا وبناتنا.

فستان العيد

كوثر حسن

(الحسكة)

كنا نعيش في مدينة الحسكة في بداية الثورة، لكننا هربنا إلى القرية التي تبعد أربعين كيلومتراً أملاً في حماية الأطفال من الموت. هربنا طلباً للأمان لنا ولأولادنا، وبسبب الانقطاع الدائم للماء والكهرباء.

كان عندي ابنتان وصبي. ابنتي الكبيرة بعمر ستّ سنوات وستة شهور. كانت مهذّبة وحسّاسة جدّاً، وكنا متعلّقين بها كثيراً، فهي طفلة جميلة وعاقلة، لكن يبدو أن الله خلقها لأجله وليس لأجلنا.

عشية عيد النيروز، كنا لا نزال في القرية، وجاء والدي ووالدتي لزيارتنا. قررت أن أذهب مع والدي بزيارة إلى الحسكة، وخاصة لأن ابنتي كانت ترغب في فستان للعيد.

وصلنا إلى منزل أهلي وتناولنا طعام الغداء. أصرّت أختي أن تذهب بالأطفال إلى ساحة العيد القريبة من البيت، وبقيت مع أبي وأمي في المنزل. وعندما عادت أختي، كان الجو بارداً فقمت بتشغيل المدفأة للأطفال وأجلستهم أمام التلفاز.

"هي طفلة جميلة، لكن يبدو أن الله خلقها لأجله وليس لأجلنا"

دخلت أحضّر الشاي والحزن يعتصر قلبي، وكنت أتساءل عن سبب كربي وحزني، وفجأة دوّى صوت انفجارين متتاليين. تعالى صوت بكاء الأطفال، ركضت باتجاه غرفتهم وطلبت منهم أن يتجهوا إلى الممر لحمايتهم من الخطر، وانتبهت أن ابنتي ليست بينهم. ناديتها باسمها، لكنها لم تكن في المنزل.

خرج الجميع بحثاً عنها، وبقيت مع الأطفال. ثم سمعتهم وهم عائدون ينادون باسمها (نيرفين)، ودخل خالي وهو يحملها مغطّاة بالدم.

أسعفناها إلى المشفى، لكن إصابة رأسها كانت شديدة ولم تنجُ.

لم أشترِ لها فستان العيد.

عندما ألتقي بأمهات أخريات يدور حديثنا عن أطفالنا الراحلين، ونقول إنه القدر لنواسي أنفسنا. ثم ندعو أن ينتهي كل هذا كرمى لمن تبقّوا.

بُعيد استشهاد ابنتي علمت أنني حامل. وتوقعت أن الطفلة التي سأنجبها وأمنحها اسم اختها ستواسيني وتُنسيني همّي. لكنني حتى الآن لست قادرة على لفظ اسمها حتى.

أنا ضد الثورة، فأي ثورة هذه التي يداس فيها الشباب بالأقدام، ويذلّون ويهانون! كان من الأفضل أن يبقى الحال على ما هو عليه، ولا يحدث ما حدث.

بيكفي.. بيكفي دم!

ثقبٌ صغيرٌ فحسب

أنطوانيت بارومي

(الحسكة)

ابني متزوج ولديه طفلتان. كان يعمل نجّاراً مع والده، ويعزف في فريق الكشافة التابع للشبيبة. كان ودوداً، ومتعاوناً مع الجميع، لا يتوانى عن خدمة أحد، ولا يرفض أي طلب مساعدة.

في ليلة رأس السنة لم يأتِ ويسهر معنا، لأنه كان مسؤولاً عن مولّدة الكهرباء في حيّه. وخاف أن يحدث عطل يسبب انقطاع الكهرباء بينما الناس تحتفل. بعد تلك الليلة توترت الأجواء كثيراً. وفي أحد الأيام، طلب ابن الجيران منه تشغيل المولدة. لكن صاحب المولدة رفض. لم يُعِرْ ابني أهمية لرفضه لأن الناس بحاجة إلى الكهرباء، فذهب ليشغّلها، وبعد لحظات كانت رصاصة أطلقها قناص تدخل جبهته وتستقر في دماغه. وقع أرضاً، وحاول أصدقاؤه التقدم نحوه لإنقاذه لكنهم لم يستطيعوا بسبب كثافة الرصاص.

"لقد مات شهيداً.. شهيد الماء. أراد أن يسقي العِطاش"

جاء جارنا يدق الباب، لم يقل لنا إن ابني قُتل، بل قال: «تصاوب». رحت أركض في الطرق وأدور على المشافي وأنا أصرخ: «دخيلكون بس دلّوني على ابني فينو؟»، فأخبروني أنه في الكنيسة. ذهبت هناك، ورأيته ممدداً، ومضرّجاً بالدماء، عيناه الخضراوان ما زالتا مفتوحتين، مددت يدي إلى رأسه لم يكن هناك شيء، ثقب صغير فحسب. هذه هي نهاية ابني.

بقي دمه على الأرض سنة كاملة لم ينشف. كلما هطل المطر يظهر الدم مجدداً، وعند انتهاء المطر تختفي الدماء. لقد مات شهيداً.. شهيد الماء. تُقدَّر شهادته عند رب العالمين أكثر من بقية الشهداء. أراد أن يسقي العِطاش.

أمنيتي أن تهدأ الأوضاع في البلاد.

لو أن كل الأمهات ربّين أبناءهن تربية صالحة ما كانت وصلت الأمور في سورية

إلى ما هي عليه. ما حصل ببلادنا أعادنا عصوراً إلى الوراء، إلى زمن قابيل وهابيل عندما كان الإخوة يقتل أحدهم الآخر.

أجلس مع صديقاتي اللواتي يبكين شوقاً لأبنائهم المسافرين، فأقول لهنّ: أنتن أرسلتنهم برغبتكن. أما أنا ففقدت ابني برغبة الله. بإمكانكن مكالمتهم، وسماع أصواتهم عندما تشتقن إليهم. أما أنا فلا أستطيع ذلك.

أرى في أحلامي أني أفتح الباب لاستقباله، لكنه لا يظهر.

أيّة خسارات نعيشها!

لينا رمضان

(راس العين)

في 2013، بدأت معاناتنا وخرجنا من بيوتنا في «راس العين». خرجت العائلة كاملة مع أخوات زوجي، وبيت أهلي. وكانت أصعب لحظة حين تركنا بيوتنا وراءنا. خرجنا لأننا خائفون على أرواح أولادنا، وأخواتنا، وكان هدفنا الأول الهروب من الرصاص، ورجاؤنا أن نعود إلى بيوتنا، وأن يعود أولادنا إلى مدارسهم.

كانت الأخبار تأتينا عن الأحداث التي تجري في بقية المدن السورية، ونرى أمهات الشهداء يبكين على أولادهن مقهورات. ثم دخل الجيش الحر وصار حقيقة في واقعنا، وشعرنا بآلام الأمهات السوريات في كل مكان.

"عبثوا بالذكريات، مزقوا الصور، ورموا الكتب"

خرجنا وتركنا الرجال، حاملين السلاح ليدافعوا عن البيوت. وكنا خائفين عليهم من قذيفة أو رصاصة. تمنيت أن أحمل السلاح لكن خانتني الجرأة. بعد أن هاجرنا سمعت أن هناك صبايا وأمهات حملن السلاح.

عندما رجعنا إلى البلدة، بعد أربعة شهور قضيناها خارجها، انتابنا شعور قاسٍ حين رأينا البيوت منهوبة ومسروقة. هم لم يسرقوا فقط، بل كانوا يفتّتون تاريخنا، ويفتتون الماضي. يحرقون ويخربون كل شيء، يعبثون بأدق التفاصيل. أكثر ما آلمني هو أنهم عبثوا بالذكريات، مزقوا الصور، ورموا الكتب.

كنت أخاف أن يقتحموا «رأس العين» ويبدؤوا بالقرى المحيطة، ومنها القرية التي كنا فيها. كان الناس يتكلمون عن داعش الذي يقطع الرؤوس بالسيوف، وصرت أستيقظ فزعة وأنا أبكي من كابوس أراهم فيه جاؤوا ليقطعوا رأسي ورؤوس أولادي.

بعد تحرير المدينة، عدنا إليها. كان الوقت ظهراً عندما دخلتها مع عائلتي، وكانت من أسعد لحظات حياتي رغم الدمار والخراب. حين أجلس مع بقية الأمهات، نتحدث عن الغائبين، ونبكي، ونتمنى أن تنتهي هذه الحرب، فالأمهات ألمهن واحد.

كان مستقبل أولادنا أهم شيء في حياتنا، وحين خرجنا صار أولادنا بلا مدراس.
نحن لم نفقدهم، لكنني أشعر بأنني أفقدهم شيئاً فشيئاً..

أية خسارات نعيشها!!

لكنّ المرأة ليست ضعيفة

نورا

(القامشلي)

كان آباؤنا وأجدادنا يحكون لنا عن المجازر التى تعرّض لها الأرمن والسريان والكلدان، ونحن نعيش ما يشبه ذلك الآن. نحن كلّنا، وليس كما في الماضي، أي ليس الأرمن والسريان فحسب.

أولادي لم يستطيعوا إكمال دراستهم الجامعية. أهلي سافروا، ولا أستطيع رؤيتهم إلا بفترات متباعدة.

"كيف يمكننا أن نصبح لاجئين؟ هذه أرضنا، وبيوتنا وحياتنا"

الكهرباء نادرة، والماء مقطوعة، والمصروف لا يكفي، والمواد الغذائية والصحية مفقودة. وهذا يسبب الاكتئاب. لا نجتمع، ولا نخرج إلى مكان، إلا وحديث الخوف رفيقنا، بل إن الحالة النفسية التي سببتها الأزمة، والخوف، والقلق، تلاحقنا إلى السرير. قبل النوم تسأل نفسك: يا ترى بكرا رح كون عايش وأقدر أقوم؟ وعند الصباح تسأل: يا ترى إذا رحت شغلي.. بقدر أرجع عند ولادي؟

ما من رغبة لعمل أي شيء. وإن خطر على بالك أي مشروع جديد تستبعده، لأنه يمكن بكرا ما تكون هون، ليش بدي غيّر؟

علينا دائماً أن نقاوم، وأن نحافظ على الأمل بالسلام والاستقرار، وأن نتغلب على القلق وعلى الخوف الذي يعصف بأحلامنا ومعيشتنا وظروفنا.

آخر ما قد أفكّر فيه هو الهجرة. نحن عشنا هنا، تعبنا وشقينا في هذا البيت، ودرّسنا أولادنا، كيف يمكننا أن نصبح لاجئين؟ هذه أرضنا، وبيوتنا وحياتنا.

النساء هنّ دوماً أكثر الضحايا في حالات الحرب، لكن المرأة ليست ضعيفة، عندها كل الصبر والقوة والتحمّل والسلام والمحبة.

نريد حياة هادئة، فيها السلام والتعايش بين الجميع. أتمنى من جميع الدول أن

تساهم في ذلك، لأن كثيراً من الدول تريد بقاء هذه الأزمة كي تحافظ على مصالحها. وأتمنى أن يصل كلامي إلى كل الناس، أريد منهم أن يدافعوا عن أرضهم، فحياتهم في وطنهم، والأمان والسلام لن يجدوه إلا في أرضهم، بين عائلاتهم وأقاربهم وأصدقائهم.

باب مفتوح

جورية

(طرطوس)

لم يكن قد مضى على التحاقه بالخدمة الاحتياطية سوى شهر وسبعة وعشرين يوماً. عندما عاد إلى البيت في إجازته الأولى، كان عيد ميلاده الحادي والثلاثين قد انقضى، لكن يوسف الذي يحب الفرح لم يترك المناسبة تمر دون الاحتفال بها، فاجتمعنا أنا وإخوته وخطيبته لنطفئ شموع ميلاده.

لم يخلُ بيتنا من الأصدقاء والجيران الذين أتوا ليطمئنوا عليه. كان محبوباً من الجميع. كان يضمّني ويقبّل يدي دائماً ويشتمّ رائحتي ويقول: يا الله يا أمي.. رائحتك كم هي طيبة! كان بيته قد اكتمل وخطيبته رتبت أغراضه، وامتلأت حديقته بالأزهار التي كنت أسقيها دائماً. كانت إجازته قصيرة ولم أستطع رؤيته كما أحب.

يوم سفره استيقظت في الصباح لأجده نائماً بجواري، ولم يكن قد فعل ذلك مذ كان صغيراً. وحين آن أوان الرحيل بقيت على الطريق ألوح له بيدي، وعيناي لا تفارقان السيارة التي أقلّته، حتى توارت خلف أشجار الكينا.

"كان يضمّني ويقول: يا الله يا أمي.. رائحتك كم هي طيبة!"

في اليوم التالي اتصلت به لأُخبره أني قدّمت واجب العزاء لأم صديقه الذي استشهد كما أوصاني ليلة مغادرته. سمعت صوته المتقطّع: أمي لا أستطيع سماعك جيداً، لا يوجد تغطية.. سأتصل بك لاحقاً. ما عرفت حينئذٍ أني سأكون في اليوم التالي الأم المفجوعة وصاحبة العزاء، إذ جاءني اتصال في السابعة صباحاً يُعلمني أن يوسف قد استشهد.

أجلس وقبالتي باب غرفته المفتوح تطلّ منه ذاكرتي القديمة. أتشبّث بها وأدعوها أن تعود بي إلى زمن كنت قد قضيته في ركن الدين في دمشق، لثمانيةٍ وعشرين عاماً كانت جاراتي وصديقاتي فيه من كل أنحاء سورية. كنا عائلة واحدة، نذهب إلى السوق معاً، ونشرب الشاي مساء.

بكيت كثيراً عندما قررنا العودة إلى القرية بعد تقاعد زوجي. وها أنا الآن أمام باب غرفة يوسف الذي ما زال مفتوحاً، وبقربي دليل الهاتف الذي ما زال محتفظاً بأرقامهم، أتذكر الماضي الحيّ دائماً في أرجاء بيتي، وأتمنى أن يصبح حاضراً لأعود وتمتلئ قلوبنا بالمحبة.

نتبادل قلوبنا

فداء ميرزا

(الحسكة)

درس ابني لؤي حتى المرحلة الإعدادية وانتسب باكراً إلى المجلس العسكري السرياني، ليدافع عن قريته ومعتقداته ووطنه. كان خائفاً على القرى المسيحية، وكان يحرس الكنائس وخاصة في الأعياد خوفاً من أي اعتداء عليها. كان يحب وطنه، ويقول دائماً: علينا أن نحافظ على بعضنا، وعلى سوريتنا، يجب أن لا يسافر أحد. إذا سافرتُ، وسافر غيري، فمن يبقى في سورية؟ كلّ رفاقه سافروا وبقي وحده هنا.

في إحدى نوبات حراسته تعرّض لشظيّة في إحدى قدميه ولم تَثْنِه إصابتُه عن متابعة عمله في اليوم التالي. أحياناً كان يأتي في زيارات خاطفة، وكان سعيداً جداً، ومتفائلاً بأنهم سيواجهون داعش ويمنعون تمدّدها.

"عندما ألتقي بأمهات أخريات استشهد أبناؤهن نتبادل قلوبنا"

قبل استشهاده بثلاثة أيام كان في زيارتنا. فجأة، دخل إلى البيت منهمكاً، وطلب مني أن أناوله سلاحه وجعبته، وغادر على الفور إلى القامشلي مع والده. هناك حاصرتهم قوة كبيرة من داعش، وقاوموا حتى آخر رصاصة، واستشهد هناك.

ما زلت حتى الآن غير مصدّقة أن ابني استشهد، ما زلت أعتقد بأنه سيطرق الباب، أشعر به حياً بيننا.

أصعب ما في الأمر أنني لم أستلم جثته، أعلموني باستشهاده وأرسلوا لي صورة له على الموبايل، تخيّلوا موقفي وأنا أرى صورة ابني الشهيد، وأني لم أستطع وداعه. لكنني أقمت له جنازة كأنه موجود.

عندما ألتقي بأمهات أخريات استشهد أبناؤهن نتبادل قلوبنا. آخذ قطعة من قلوبهن ويأخذن قطعة من قلبي، ونحن جميعاً نفخر بأبنائنا فقد أحبوا وطنهم وشعبهم، وماتوا في سبيل عقيدتهم.

أفخر بابني وباستشهاده، وأتحدّث عنه في كل مكان أحلّ به. هو لم يهرب من مواجهة أعدائنا، بل قاومهم حتى آخر لحظة رغم أنه كان بإمكانه الهرب، الموت قدر للإنسان ولكن، لا ميتة أشرف من الشهادة!

أنا ذقت طعم الشهادة، ورغم حزني، أتمنى من كل أم تفخر بابنها أن تقدمه شهيداً، وألا تحزن، إن لم نقدم أبناءنا فمن سيدافع عن وطننا؟ طريق الشهادة فخر لكل أم.

ذكرى لؤي باقية في قلوبنا، وهو حيّ بيننا.

أريدكم أحياء فحسب!

سلطانة أحمد

(القامشلي)

عندي ثمانية أولاد: أربعة شباب وأربع بنات، هم حياتي. توفّي أبوهم وهم صغار. لم يساعدني أحد في تربيتهم. كان إبراهيم خجولاً ولكنه كان فهيماً. تزوج من سنوات ولديه طفلتان.

اشترى إبراهيم قطعة أرض ما زلنا لم نسدّد ثمنها كاملاً حتى الآن وبدأ يعمّر بيته. ما زالت غرفتاه الصغيرتان بلا أبواب.

"أحسست بالرصاصات تمرّ فوق رأسي"

عندما بدأت المظاهرات التحق بالدفاع الوطني، وعمل معهم على أحد الحواجز.

بقيت زوجته عندي ولم يأخذها إلى بيتهم، وبعد أربعين يوماً جاء إلى المنزل وأخذها إلى بيت أهلها في راس العين وعاد إلى المنزل مجدداً.

عندما كان يسألني عما أحتاجه لم أكن أطلب شيئاً، كنت أقول له: أريدكم أحياء فحسب!

في أحد الأيام ذهب مع أحد أصدقائه ليلتحق بالحاجز، وكانوا يسلكون طريقاً عسكرياً، حيث يمرون بقرب مدرسة القرية. في الطريق قابلهم بعض شباب القرية فلم يرتابوا بشيء، وعندما اقتربوا أكثر أطلق الشباب النار على ابني.

في تلك الليلة لم أنم، سهرت خارج المنزل، كنت مطمئنة إلى أنه قريب مني، فالمدرسة قريبة، وعندما سمعت إطلاق النار أحسست بالرصاصات تمرّ فوق رأسي، فدخلت إلى المنزل مرتابة.

خرجت في الصباح الباكر إلى الدكان لشراء بعض الحاجيات، بعد قليل حضر إلى المنزل أحد الرجال وسألته عن سبب مجيئه، فقال إنه حضر ليتحدّث بشأن ابني إبراهيم. شعرت بالقلق لأنني اعتقدت بأنه قد آذى أحداً أو أقدم على قتل شخصٍ ما،

ولكن واقع الحال كان بعكس ما توقعت، فقد حضر الرجل ليخبرني بأن ابني استشهد.

أنا فخورة به، لأنه لم يؤذِ أحداً من أبناء بلده، لم يطرق أحد الباب ليشتكي منه يوماً.

تضامن معي أهل القرية جميعاً فقد كانوا يحبون ابني، فهو ذو أخلاق وتربية حسنة. لم يبقَ أحد في تل تمر لم يحضر جنازته.

سلوتي الآن في أبنائه، فأنا أقوم بتربيتهم.

لا بدّ من محاكمة المسؤول

مريم حلاق

(ريف دمشق)

كنت أقطن وأسرتي السعيدة في حرستا. كنت ناشطة في حزب البعث، وعملت مديرة لثلاث مدارس خلال 25 سنة.

كان لديّ شابّان، وبعد 13 سنة، وبسبب إصرار الأهل ورغبتهم في أن ننجب فتاة أنجبت ابني أيهم. أيهم المأساة الكبرى في حياتي.

كان أيهم طفلاً وشاباً رائعاً، درس طب الأسنان، وكان يحضّر الماجستير. كان سلمياً جداً، حتى أنه لم يعمل في الإغاثة، كان مهتمّاً بالعدالة الانتقالية.

"السجّان قال له: أخبرونا فقط عندما يموت"

اعتقلوه أول مرة وجرجروه ثلاثة أشهر من فرع إلى آخر، حتى انتهى به المطاف في سجن عدرا. بعد الإفراج عنه، عاد إلى جامعته، وأتمّ العمل على رسالة الماجستير، حتى أن بطاقات الدعوة لمناقشة الرسالة كانت جاهزة.

بعد ستة أشهر اعتقل مرة ثانية من قلب الجامعة، حاولنا أن نعرف في أي فرع وضعوه، دون جدوى. بعد ستة أيام بالضبط، دخلت إلى غرفته، وكان لها باب خارجي، فجأة تخيّلت أن الباب قد فُتح ودخلت مجموعة رمت جثته أرضاً، هنا عرفت أن شيئاً خطيراً قد حدث.

لم نترك فرعاً أمنياً إلا وطرقنا بابه بحثاً عنه، وبعد ثلاثة شهور جاءنا خبر بأنه استشهد بعد أربعة أيام من اعتقاله.

عرفنا من أصدقائه أن طالباً (لن أنسى اسمه) اعتقله أثناء وجوده في الجامعة، وضربه بعصا على رأسه وتركه ينزف. وقد قاموا بتعليق الشباب، ومنهم أيهم، وضربوهم واقتلعوا أظافرهم بكماشة، وثقبوا آذانهم بالإبر، ثم قاموا بسكب الماء المغلي عليهم.

عذبوهم حتى جاءت سيارة وأخذته مع أصدقاء له، ولم يتوقف الضرب طوال الطريق. وعرفنا أن أيهم كان فاقد الوعي، وأن طبيباً، كان بين المعتقلين، حاول أن يطلب الإسعاف لأنه بدأ بالازرقاق، ولكن السجّان قال له: أخبرونا فقط عندما يموت.

بقي على هذه الحال أياماً قليلة، وبينما كان متّكئاً على حضن أحد الشبان أحسّ هذا ببرودة أيهم، فأخبرهم. عندما دخلوا تبّينوا أنه ميّت من نصف ساعة، فلفّوه بالبطانية ووضعوا عليه رقماً وأخذوه.

بعد العذاب والكم الهائل من المآسي التي شهدْتُها أثناء تردّدي على الأماكن التي يحفظون فيها الجثث بحثاً عن جثمان ابني، وما سمعته من الأمهات اللواتي التقيتهن، صارت لدي رغبة بالانتقام، حتى باليد.

أنا أعرف من قتلوا ابني شخصاً شخصاً، لم يقتله قنّاص أو انفجار، لقد جرى ضربه وتعذيبه في الجامعة. قد يكون أحد القتلة ابن صديقة لي، أو أحد طلابي. كيف استفاق الوحش الكامن في نفوسهم؟ لا أدري. أنا أسامح الأهالي، فبينهم أمهات مثلي، ولا ذنب لهن بما يحصل، سنعود يوماً ما ونجلس كأمهات معاً، لكن لا بدّ من محاكمة المسؤول الأول عما جرى، هو ورؤساء فروعه الأمنية.

يبقى الأمل بأن نجد سورية يوماً ما دولة ديمقراطية، علمانية بالمفهوم الصحيح، وأن يستردّ المواطنون حقوقهم، ويسودَ التسامح بيننا!